يحي رباح

نحن في زمن الاشتباك

١٥ ـ ٥ ـ ١٩٤٨

آخر صورة ما زلت اختزنها في ذاكرتي ، ان قريتنا الصغيرة كانت تقصف بعنف من قبل العصابات الصهيونية ، وان بضعة رجال مسلحين من ابناء قريتنا ، كانوا يقفون بحذر وراء متاريس صنعوها من اكياس الرمل واقاموها حول القرية ، وكان كل شيء يوحي ان القتال سوف يتواصل لفترة طويلة .. وكان الامل العظيم معلقا بتواصل القتال ، غير ان الجنود العرب جاءوا .. استقبلهم الناس بالفرح.. ولوحلهم بقوة رجال القرى من وراء المتاريس .. ووصل الامر الى حد ان كثيرا من المحاربين أطلقوا الرصاص ابتهاجا .. وزغردت النساء وتمتم الرجال الطاعنون في السن : الحمد لله .. ولكن الذي حدث ، ان الجنود تبعا للاوامر التي لديهم ، تجاهلوا ذلك كله ، امرونا بالتراجع من القرى والمتاريس .. وضعوا انفسهم عازلا بيننا وبين العصابات الصهيونية ... وهكذا انتهت الحرب ..

وهكذا ضاعت فلسطين

وهكذا اصبح شعب كامل في العراء .

٧ ـ ٥ ـ ١٩٧٦

الوضع في محور عينطورة ينفجر بقسوة ، المقاتلون الصامدون فوق التلال .. تلفريك .. بسكنتا .. صنين .. وعينطورة .. يتعرضون منذ الثالثة فجرا الى موجات متعاقبة من الهجوم من قبل العصابات الانعزالية .. سد من نيران المدفعية ينهال فوق رؤوسهم وهم في مواقعهم العارية ... دبابات وآليات تتقدم .

اوقفنا الجنود عند الطرف الاول للحاجز الذي اقيم في الطريق قبيل شتورا

ـ قف

ـ انا فدائي

ـ قف

ـ المعركة على اشدها .. انهم يهاجموننا بقسوة ..

ـ قف

اهانات .. كلمات بذيئة .. ضرب ... احتجاز حتى صباح اليوم التالي .. وجاء من يعتذر

ـ ان النوايا حسنة

ـ ولكن المهمة قذرة .

كان الحادث الاول في زمن الضياع

ونحن الان في زمن الاشتباك

وعبر ثمانية وعشرين عاما ، صعد شعبنا

ـ ابو حنا .. هل أنت مبسوط ؟

ـ مبسوط مش مبسوط .. نشكر الله على كل حال .

ـ وكيف ترضى خمسين ليرة فقط ؟

ـ الخواجة وكيل البيك ابن ملعونة طلبت مرة منه زيادة فهددني بالطرد .. لك وين بدي روح اذا طردني ؟

ـ بلاد الله واسعة .. تشتغل في أي عمل اخر .

ـ انا طول عمري ناطور .. ولدت ناطور وبموت ناطور ..

*** * ***

هبطت الاميرة عن المحفة ، نظرت الى الرجل الذي يحمل علم الاباطرة وقالت له لا تغادر مكانك ، وسيد الارض ذو الكرش العاري حاول ان يلحقها ، فقرأت عليه تعاويذها وحولته الى تمثال .

وفتح لها الخواجه وكيل البيك ذراعيه واحتضنها .فأشاحت فتاة الجيشا بوجهها ، وغطس القارب بالمغنى والعاشقين ولكنه لم يغرق .

وهجم الخواجة على صدر الاميرة ، فتمنعت . وعضعض شحمة اذنها ، فانفردت ، وفتحت له مصراعيها .

وجاء ابو حنا يحمل صينية القهوة ، فاندلقت على ثيابه لحظة ان شاهد ...

وقام الخواجة فركل ابو حنا ، وصفعه ، وشتم امه ، فبكى ابو حنا لانه لا يملك ولدا ، واذ ذاك استيقظت من لحظة تفصل بين الحلم واليقظة ، استيقظت والعرق يتصبب من جبيني ، ذهبت الى المغسلة الفاخرة وغسلت وجهي ، وحملت البارودة على كتفي وخرجت .

كان ابو حنا في الخارج ينظف جرح الكلب بقطعة شاش ، يحنو عليه بمهارة ، حييته .. فحياني وهو مقطب الجبين .

سألته : أراك مغموما .. ما الامر ؟

اجاب : تلفن لي وكيل البيك ، وقال انه سيطردني اذا حدث شيء للقصر .. لك يطردني يلعن ابوه وابو يلي بيشد على ايده .

كان الغضب يتشبأ على ملامحه ، يتجمع .. يتحول الى قبضة الى كتلة من الوهج .

ـ انه يعطيني خمسين ليرة .. طز .. لو بعت علكة سأحصل على اكثر من ذلك .

ثم التفت الى الطريق التي يديم اليها النظر والتي ينتظر عبرها عودة التي قد تأتي وقال :

ـ عندما يأتي الخواجة وكيل البيك ، سأقول له ياخواجه انت تعطيني خمسين ليرة .. طز في الخمسين ليرة .

سيقول لي امش ياابن الـ... سأقول له انا مش ابن الـ... انت ابن الـ ... سيرفع يده ليصفعني ، سوف امسك يده ، واقول له : هيدي ايدك بكسرها مرة ثانية ، واذا عدت وعملتها فسوف اقوصك بالجفت .

قال ذلك ، ونظر الى البارودة المعلقة على كتفي .

«فلسطين الثورة» البيروتية
٥ شباط ١٩٧٦

الفلسطيني من قاع المأساة الى قمة الحقيقة .. حقيقته السياسية في الماضي .

كانوا يطبعون صورة الخيمة ، والطفلة المسلولة ، والشيخ الحزين ، يطبعونها على بطاقات للتسول ... نحن الان ،

نطبع صورة الفدائي ... والقاعدة ... والرشاش على بطاقات للتهديد .. هل هناك احد يجهل ان هناك فرقا شاسعا بين بطاقة التسول وبطاقة التهديد ؟

ويصمد الرجال فوق القمم الثلجية سبعين يوما كاملة .. يحدث الموت مثل الوميض ، يلون الدم كتل الصخور ، واوراق الشجر ، والملابس الكاكية اللون .. وحين اسأل « ابو خالد » قائد المنطقة :

ـ ما هي اغنية الموسم المفضلة ؟

يقول :

ـ يا فدائي خللي رصاصك صايب
نحن في زمن الاشتباك .
بطلقات الرصاص
بنقاط الدم

يمزق اللحم البشري ، يصنع المقاتلون اعظم شبكة اتصال في جسم الامة العربية ، ويصوغون خارطة جديدة .. خارطة جميلة عنوانها « هذه الارض كلها ملك للفقراء العرب » .

وها هو مقاتل صغير السن ، يصاب زميله ، ينزف دمه ، يحمله بين يديه ووجهه مضاء بقوة الانفجار .. وحين تسأل ذلك المقاتل صغير السن

ـ كيف الاحوال ؟

ـ جيد جدا .. والمعنويات عالية .
تكون الاجابة
نحن في زمن الاشتباك ،

في الماضي ، قبل عشرة اعوام ، خمسة عشر عاما ، عشرين عاما ، اجتمع كبار الاعداء .. اميركيون وانجليز .. وفرنسيون .. وصهاينة .. وخونة عرب .. وقرروا المعادلة التالية :

لا توجد فلسطين
لا يوجد فلسطينيون
وكان الرهان كله يتركز على المخيم
على الحصار
على طمس الملامح السياسية
على تنظيم الموت بطريقة هادئة
هكذا كانوا يقولون ويعتقدون ،
في المخيم يموتون
في مخافر الحدود يموتون
وفي حفلات البكاء الكاذب على فلسطين يموتون
نحن الان في زمن الاشتباك
نشتبك في مرتفعات الجليل
في احياء القدس القديمة
في مرتفعات صنين ، تلفريك وعينطورة
نحن في زمن الاشتباك

وثمة الف حافز للموت ، والف حافز للصمود ، والف حافز للبطولة ، ما هو الحافز لان يصمد ابو مازن وابو نضال اربعا وعشرين ساعة متواصلة وراء رشاش الـ ٥٠٠ في مجابهة الموت ، وتضيء الاعين بالابتسام حتى اللحظة الاخيرة ؟

نحن نحب زمن الاشتباك . لان فلسطين تصبح كبيرة مثل الثورة ، لان فلسطين تطبع علامتها الخاصة فوق الصدور .. مثلما يطبع الفقر علامته الخاصة في بريق كل عيون الفقراء ...

بعد هزيمة عام ١٩٦٧ ، اطلقت يائيل ابنة موشيه دايان صرختها المدهوشة :

ـ يا الهي
هل كل هذه الارض لنا !
نحن في زمن الاشتباك ،

والمقاتل الفلسطيني يطلق الآن صوته المدوي :

ـ يا الهي
هل كل هذه الجماهير مع بندقيتي !
جماهير تقاتل
اطفال صغار يرفعون اصابعهم علامة النصر
وجبال مستعصية صارت الان لينة مثل المهرة الاليفة
وجزر مغلقة صارت مفتوحة من الجهات الاربع
وطرق كثيرة .. طرق كثيرة .. ومقاتل يقول ببساطة :

ـ اينما تقاتل البندقية الثورية ... فانما تقاتل الاعداء وفي اي اتجاه .. فان فلسطين هي الهدف

ـ ما هي فلسطين ؟

ـ فلسطين هي حرية الارض العربية
وحرية الامة العربية

ومقاتل آخر يعلق على ما حدث :

ـ رغم الالم .. ما حدث شيء عظيم
الذي حدث هو عملية تطعيم بالنار لشعب بأكمله .. ويمكن ان يكون بداية لعملية تطعيم بالنار لامة بأكملها

نحن في زمن الاشتباك
كانوا يفرضون حصار الرغيف
صاروا يفرضون حصار الذخيرة
كنا في زمن الضياع
صرنا في زمن الاشتباك
وثمة فرق هائل بين بطاقة التسول
وبطاقة التهديد
فنحن في زمن الاشتباك

« فلسطين الثورة » البيروتية
١٦ ايار ١٩٧٦